

كان يلجأ إلى وأد بناته في أمكنة خاصة بعيدة عن المنازل حتى لا يدنسها بجمشهن ورقاقهن . وأشهر مكان كان يجري فيه الوأد على هذه الطريقة هو جبل أبي دلامة

وقد ظل هذا النظام متبعاً عند المشائر السابق ذكرها حتى قبيل الإسلام ، ثم أقيمت في نفوس كثير من العرب كراهته ، وانكشفت لهم شروره ، وظهر لهم تنافره مع سنن الطبيعة ونواميس العمران ، فنهض كثير من ساداتهم إلى محاربه والعمل على التخفيف من آثاره ، وكلت جهودهم هذه بالنجاح ، إذ كانت النفوس مهيأة لما يدعون إليه ، فلم يجيء الإسلام حتى كان هذا النظام على وشك الانقراض ، وقد شن الإسلام على البقية الباقية منه حرباً شمواء انتهت بحوه محوآ تاماً ، فلم نسمع بعد وفاة الرسول عليه السلام بأى حادث من هذا النوع ، حتى بين المشائر التي بقيت على دينها القديم

وقد اختلف الباحثون في العوامل التي حملت المشائر السابق ذكرها على اتباع هذا النظام الوحشي ؛ وانقسموا بهذا الصدد إلى فريقين : فريق يملئه بالفقر ، وآخر يتلصق بأسبابه فيما جبل عليه للعرب من شدة الحرص على صيانة عرضهم ، واتقاء ما عسى أن يصيبه بمكروه

فأما الفريق الأول^(١) فيرى أن أسباب هذا النظام ترجع إلى الإملاق وعدم القدرة على تربية الأولاد ؛ وأن النبتة في هذا تقع على بيئة بلاد العرب وحالتهم الاقتصادية : فاجتداب أرضهم وضآلة دخلهم من مهنة الرمي التي كان يزاولها كثير منهم ، واحتكار التجارة في يد أفراد من سراتهم ، وحياة الشظف التي كانت تمنأبها الدهماء ، والمجاعات التوالية التي كانت تنتابهم ، وكثرة نقلهم في طلب الكلا لأناسهم ... كل أولئك وما إليه جبل من الصمب على كثير منهم تربية أولاده ، واضطر القبايل السابق ذكرها إلى طريقة الوأد لتخلص من هذا العبء الثقيل . ويرى هذا الفريق في قوله تعالى : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ... ما يزيد مذهبه تأييداً

(١) من بين أفراد هذا الفريق الأستاذان روبرسن ميث الإنجليزي ، ووستمارك الفنلندي R. Smith, Westermarck

وَأَدُّ الْبَنَاتِ الْكُفْرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ

عوامله لصحيرة وموقف الإسلام منه

للككتور على عبد الواحد وفي



لم يكن نظام وأد البنات متبعاً عند جميع العرب في الجاهلية ، بل كان مقصوراً على بعض عشائر من ربيعة ، وكندة ، وطبي ، وغميم . وكانت الطريقة السائدة في الوأد أن تحفر بجانب الموضع الذي اختير لولادة الأم حفرة

عميقة ، فإذا ظهر أن المولود أنثى ، قذف بها حية عقب ولادتها مباشرة في هذه الحفرة ، وهيل على جسمها للتراب ، وبمضهم

فهل رأيت أعظم نفساً من هذه النفس الروحانية ؟ وهل رأيت رجلاً يقدر الرجولة ولو في عدوه هذا التقدير ؟ الرسول الكريم يطلب منه الإيمان فيأبى ، ولكنه يماهده على السلام فيكون له العفو الجميل . إن في ذلك لآية رائمة للقدرة حين ترحم . إن في ذلك لفلسفة عالية لو أدركها العالم لتجمعت أطرافه ، ولعرفت عليه أجنحة السلام

إنها الحكمة من الرسول الكريم التي أدبه ربه فأحسن تأديبه

(للنضرة)

محمد البشير

الرجوع إلى أبيها وعشيرتها . فألى أبوها على نفسه ليشتد
كل بنت تولده ، وصارت عشيرته على سنته ، وانتدى بها بمض
المشار الأخرى

وهذا الرأي لا يقل فساداً عن الرأي الأول . فالقصة التي
يستند إليها تبدو عليها علامات الاختلاق وأمارات الأساطير .
هذا ، إلى أن ما تقرره يتعارض مع النواميس التي تخضع لها
الظواهر الاجتماعية في نشأتها وتطورها . فمهدنا بهذه الظواهر
أنها لا تنشأ من حادث فردي ، بل تنبت من العقل الجمي ،
وترتكز على أجماعات المجتمع وعقائده ونظمه العامة . على أن قياساً
هذا قد شهد الإسلام ومات حوالى السنة الماشرة بعد الهجرة .
فلا يعقل أن يكون هو القى قد سن نظام الوأد عقب حادث
حدث لبنت كبيرة له . إذ يترتب على ذلك أن نظام الوأد لم يظهر
إلا قبيل الإسلام ببضع سنين ؛ مع أنه من الثابت أنه سابق لبعثة
الرسول بمهد طويل ، وأنه كان على وشك الانقراض قبيل
الإسلام ؛ فضلاً عن هذا وذاك ، فإنه لم يرد في أى آية من
الآيات الخاصة بالوأد إشارة ما لسبب من هذا القبيل . ولو كان
هذا للسبب هو الباعث الحقيقي على الوأد ، لعنى للقرآن بإظهاره
وتقيحه وبيان ما ينطوى عليه من سخف وأحرف عن التفكير
السلبي ...

وقد رأيت ، بعد أن تبين لي فساد هذين المذهبين ، أن خير
طريق للوقوف على أسباب هذا النظام هو الرجوع إلى الآيات
القرآنية التي نزلت بصدده ، وربطها بما يتصل بها ، والتأمل
فيما عسى أن تتضمنه من إشارة ظاهرة أو خفية إلى العوامل
التي دفعت إليه . وقد هداني ذلك إلى النظرية التي أعرضها فيما يلي :
كانت طائفة من عشائر العرب تلجأ إلى قتل أولادها تحت
تأثير الفقر ورغبة في التخلص من تكاليف تربيتهم . وهذه
الطائفة ما كانت تفرق بين ذكور الأولاد وإناثهم . وهذا هو
ما تشير إليه الآية الواحدة والثلاثون من سورة الإسراء :
(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم

وهذا المذهب لا يتفق في شيء مع حقائق التاريخ ولا مع
المنطق السليم . فن الثابت أن هذا النظام لم يكن معمولاً به
في الطبقات الفقيرة وحدها ، بل كان عاماً عند الفقراء والأغنياء
في المشار التي أخذت به . وقد حدثنا التاريخ عن بعض من
وأدوا بناتهم في العصر الجاهلي ، وذكر من بينهم عدداً كبيراً
من سراء القوم وأغنيائهم ، ومنهم عمر بن الخطاب نفسه ...
هذا إلى أن في قصر الوأد في المشار السابق ذكرها على البنات
دون البنين ، لدليلاً على أن الدافع إليه شيء آخر غير الفقر ؛
إذ لو كان الفقر هو الدافع إليه ، لحق جميع الأولاد بدون تمييز
بين الذكور والإناث ... ويزيدنا اقتناعاً بفساد هذا المذهب أنه
لم يرد مطلقاً ذكر لفقر في أى آية من الآيات التي نزلت في وأد
للبنات . أما الآيات التي ورد فيها قتل الأولاد مقروناً بخشية
الإملاق ، والتي يزعم أصحاب هذا المذهب أنها تؤيد وجهة نظرم
فهي لا تتحدث عن النظام القبيح بصدده ، بل تتحدث عن
نظام آخر كان متبعاً عند بعض عشائر العرب ، وهو قتل الأولاد
على الإطلاق بدون تمييز بين ذكورهم وإناثهم ، تحت تأثير الفقر
وعدم القدرة على تربيتهم

ويذهب الفريق الآخر من الباحثين إلى أن أسباب هذا
النظام ترجع إلى مبالغة بعض المشار العربية في الحرص على صيانة
أعراضها واتقاء ما يحتمل أن يسببها بعمركه . فكان الواحد منهم
يخشى ، إن هو أبقى على بنته ، أن تجر عليه وعلى عشيرته عاراً
في المستقبل ، إذا وقعت سبية في يد الأعداء واستباحوا عرضها
أو زلت في حياتها وقدر لها السقوط . ويروي أنصار هذا المذهب
قصة يدعون أن حوادثها كانت للسبب الأول في توجيه المشار
السابقة هذا الاتجاه . وخلاصة هذه القصة أن عظيماً من عظام
العرب يدعى قيس بن ماصم قد سببت بنته في نارة شفتها عشيرة
ممادية على عشيرته ، ثم عقد بين المشيرتين صلح كان من شروطه
أن ترد السبايا في مقابل فدية مالية . غير أن ابنة قيس هذا كانت
قد شغفت حباً بمن وقت في يده ، فأثرت البقاء عنده ، ولم تقبل

كان خطأ كبيراً) ، والآية الواحدة والخمسون بعد المائة من سورة الأنعام: (قل تناولوا أكل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ... الآية)

وغنى عن البيان أن هذا نظام آخر غير للنظام الذي نحن بصدد الكلام عنه

وكانت طائفة أخرى من المشائر للمربية تند البنات من أولادها على النحو الذي شرحناه في سدد هذا المقال . ولم تكن تفعل ذلك خشية الفقر أو العار كما يزعم أصحاب الذهبين السابقين ، بل كانت تفعله بدافع ديني بحت . وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن البنات رجس من خلق الشيطان أو من خلق إله غير آلهتهم ؛ وأن مخلوقاً هذا شأنه يهني التخلص منه . وأصل عقائدهم هذه أنهم كانوا يقسمون ما تخرجه الأرض وما تنججه الأنعام قسمين : قسم ينسبونه لآلهتهم (اللات ، العزى ، مناة ... الخ) ويمدونه من خلقها ، وهو قسم ظاهر زكي ؛ وقسم ينسبونه لله تعالى^(١) ويمدونه من خلقه ، وهو قسم كانوا يعتقدون أنه مدنس بالرجس ، فكانوا يجرمونه على أنفسهم ، أو يرون أن واجبه المديني يقتضيهما التخلص منه أو تقديمه قرباناً لآلهتهم ، وما زُين لهم اعتقاده بصدد نتاج الحرث والآنعام زُين لهم اعتقاد مثله بصدد نتاج الإنسان ، فقسموا ما يولد للإنسان قسمين : قسم ظاهر زكي من خلق آلهتهم وهو جنس الذكور ، وقسم من خلق الله وهو نوع الإناث ، وهو قسم مدنس بالرجس كانوا يجرمون بقاءه ويرون أن واجبه المديني يقتضيهما التخلص منه^(٢) ومن أجل ذلك كانوا يتقون ذبحهن ويؤثرون وأدهن عقب ولادتهن مباشرة حتى لا تنتشر دماؤه فتنتشر معها ما تحمله من نجس ورجس^(٣) .

(١) كان الوثنيون من العرب يعتقدون أن الله تعالى هو إله اليهود لأنهم عرفوه من طريقهم ، وكانوا ينظرون إليه نظرة لا تختلف كثيراً عن نظرة المسلمين إلى الشيطان

(٢) كانت عقيدتهم في الإناث تشبه من بعض الوجوه ما يعتقدنا في بعض أولاد يرون أنه قد « سبق فيهم الشيطان » أي اشترك في تكوينهم .

(٣) يقرر كثير من ديانات الأمم البدائية أن الدم هو أم موطن لركاة أو الرجس في الحيوان

بل كان بعضهم يبائع في هذا للتخرج فيئدهن بعيداً عن المنازل كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولم يقف أمر اعتقادهم هذا عند حدود العالم الطبيعي : عالم النبات والحيوان والإنسان ، بل جاوزوه إلى عالم السماء . فكانوا ينسبون لله تعالى من هذا العالم كل ما يعتقدون أنه من نوع الإناث ، ومن أجل ذلك نسبوا إليه الملائكة لاعتقادهم أنهم من هذا النوع

وإليك جميع الآيات التي عرضت لوأد البنات ، وسيتبين لك من التأمل فيها وربطها بعضها ببعض صحة ما ذهبنا إليه

١ - « ويجملون لئلا يملون (أي لآلهتهم التي لا علم لها لأنهم جاد . اه بيضاوي) نصيباً مما رزقناهم (من الزروع والآنعام اه البيضاوي) تالله لتسألن عما كنتم تقفون . ويجملون لله البنات سبحانه ولم (أي لآلهتهم) ما يشتمون (ينين البنين) وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون » (للنحل ٥٦ - ٥٩)

فآية الأولى تقرر عقائدهم في نتاج الحرث والآنعام ونسبة بعضه لآلهتهم . والآية الثانية تقرر عقائدهم في نتاج الإنسان ونسبة جنس الذكور لآلهتهم وجنس الإناث لله . والآية الثالثة تصف ما كان يفعله أحدهم إذ يبشر بالأنثى . وغنى عن البيان أن في معنى الآية الثالثة عقب للثانية مباشرة لهدايا على أن ما كانوا يسلكونه حيال البنات من وأدهن أو إمساكهن على هون كان مترتباً على نسبتهم للإناث إلى الله تعالى ، فبدون هذا التفسير يكون المعنى الذي تقررره الآية الثالثة مجرد استطراد لا تربطه بالحقائق التي تقرررها الآيات السابقة أية رابطة منطقية وهذا ينبى أن نزه كلام الله عنه

٢ - « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والآنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا (أي لآلهتهم) فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم (عن طريق تقديمه قرباناً لهم مثلاً) ، ساء ما يحكمون . وكذلك زُين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . قد

بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم
إن يقبمون إلا الظن ... الآية « النجم ١٩ - ٢٧)

٥ - ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فقلقى في جهنم ملوماً

محسوراً . أفأصفاكم ربكم بالبنين وأنخذ من الملائكة إناثاً إنكم
لتقولون قولاً عظيماً « (الإسراء ٣٩ - ٤٠)

٦ - « فاستفتهم أربك للبنات ولهم البنون ١٢ أم خلقنا

للملائكة إناثاً وهم شاهدون ١٢ ألا إنهم من إنفكم ليقولون

وله الله ، وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ١٢ ما لكم
كيف تحكمون ١٢ ... « (الصافات ١٤٩ - ١٥٤) (١)

على عهد الروامر راني

ليسانيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

(١) ورد الواد في آية أخرى ، ولكنها لم تصر إل القائم إليه ، وم

قوله تعالى : « وإذا للوهودة مثلت بأي ذنب قتلت » (التكوير ٩٨)

خسر الدين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ،
اقتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين « (سورة الأنعام
١٣٦ - ١٤٠)

فآية الأولى تقرر ما كانوا يمتقدونه بصد ما ينتج من
الحرث والأنعام وتسمتهم هذا اللتاج بين آلهتهم وبين الله تعالى
على النحو الذي شرحناه . والآية الثانية تقرر أن قتلهم أولادهم
كان مبنياً على نفس الأساس الذي بنى عليه تسميتهم
السابق ، كما يستفاد ذلك من عطف هذه الآية على ما قبلها ،
ومن تصديرها بقوله « وكذلك » ومن نسبة تزوين هذا الفعل
إلى الشركاء (وكذلك زين لكثير من الشركين قتل أولادهم
شركاؤهم) ، ومن قوله « ليردوم ويلبسوا عليهم دينهم » .

ويستفاد من الآية الثالثة أن الذين كانوا يقتلون أولادهم على هذه
الطريقة هم الذين كانوا يجرمون بعض منتجات الحرث والأنعام ،
وأن الباعث لهم على الأمرين عقيدة واحدة ، والقصود من الأولاد
في هذه الآيات البنات وحدهن ، كما أشار إلى ذلك كثير من
المفسرين (١) وكما يدل عليه السياق

٣ - « وجعلوا له من عباده جزءاً (وهو الإناث) إن
الإنسان لكفور مبين . أم أنخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين .
وإذا بشر أحدم بما ضرب للرحمن مثلاً (أي بالجنس الذي
نسبه لله) ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . وجعلوا للملائكة الدين هم
عباد الرحمن إناثاً ، أنهدوا خلقهم ١٢ فتكتب شهادتهم
ويسألون » (الزخرف ١٥ - ١٩)

ولست في حاجة إلى أي تطبيق على هذه الآيات ، فهي مرحة
في المعنى الذي قررهنا ، وخاصة إذا ربطت بالآيات السابقة
٤ - « أفرايتم اللات والعزى ومناة اللثالثة الأخرى ألكم
الذكروه الأنثى . تلك إذن تسمية ضيرى ... إن الذين لا يؤمنون

(١) انظر البيضاوى مثلاً في تفسير قوله تعالى : « قد خسر الدين قتلوا
أولادهم سفها بغير علم ... الآية » فقد ذكر ما نصه : « يريد بهم الرب
الذين كانوا يخلقون بناتهم ... »

الانصاف

المجلة الجديدة التي يقدمها

أصدقاء الثقافة الإسلامية

من الكتاب ورجال التربية والفن والصحف

ترسل الاشتراكات في مجلة « الأنصار » بعنوان

« الرسالة » وتطلب الأعداد من دار « الرسالة » ومن

مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلى وشارع المداينغ

وفروعها بالجامعة . وعن المدد قرش صاغ

الاشتراك السنوى محسوره قرشاً